نهضة بولونية

نظر اجمالي في دولتها للاب جبرائيل لوفنك اليسوعي

كان قبل الحرب الكونيَّة الاخيرة اسم بولونية نسياً منسيًّا لايكاد يعبأ احد بجسمه وفي حقيقة الحال كانت روسيَّة تحت اسم تلك الدولة من خوارطها فتشير الى موقعها باسم « دولة المعاهدة » تريد معاهدة ڤينَّة سنة ١٨١٥ التي أتفقت فيها روسيَّة وبروسية والنمسة على تجزئتها واتخذت كل دولة منها حصَّتها . ومذ ذاك الحين ضُرب الصفح عنها لئلَّا يُحركوا بذكرها غضب قيصرة الروس . ومن ثمَّ عُدَّ صراخ احد الفرنسويين « فلتحي بولونية يا سيِّدي » عند مرور القيصر اسكندر الثاني في باريس كإهانة لشخصه

وكثيراً ما كنَّا نسمع سابقاً الدارسين لتاريخ ممالك اوربَّة اذا ورد اسم بولونية في التاريخ يقولون : « انَّ بولونية كانت من أصلها معرَّضة للموت والفناء ويثبتون قولهم بالادلَّة الآتية : انَّ بولونية ليس لها حدود طبيعيَّة تصونها واهلها معروفون بطيشهم وخفة طباعهم ثم ان الدول الكبرى المجاورة لها كثيرة المطامع فلا عجب اذا تلفت وماتت

واليوم اذ عادت بولونية بعد ١٥٠ سنة الى الحياة نجد عدداً عديداً من المتفلسفين الذين يشكُّون في ثباتها بالاستقلال الممنوح لها زاعمين انَّ اقسامها الثلثة السابقة الروسيَّة والالمانيَّة والنمسويَّة مختلفة العناصر متباينة الجوهر فلا تستطيع ان ترتبط بالوحدة القوميَّة

ولا يجهل البولونيُّون ما يعترضهم في استقلالهم من المشاكل لكنَّهم مصمِّمون العزم على توطيد دولتهم لتُصبح راسخة القدم عالية الكلمة في اوربَّة الغربيَّة . ومن الدول التي تعبس في وجوه بولونية وتعترضها في رقيها بريطانيةُ العظمى وليس ذلك على ما يظهر لاسباب اقتصاديَّة بل لانتماء اهلها الى الكثلكة . وكذلك يعادي بولونية كلّ الذين يعادون الدين المسيحي . وقد ظهرت معاداةٌ مثلها في آخر الحرب الاخيرة للنمسة الكاثوليكيَّة فتآمر عليها اليهود والبروتستانت والفرمسون بغضاً

بدينها فجعلوها في مؤخر الدول بعد ان كانت معدودة بين دولها الكبرى

وهذا البغض نفسهُ قد يضرهُ لبولونية هؤلاء الاعداء فيمتعضون منها ويسعون في عرقلة امورها ويناصبونها القتال في حياتها الاقتصادية والادبية لئلا تنال ما تؤملهُ من الحضارة والترقي

ولعلَّ احسن الوسائل التي يمكن البولونيُّون ان يتوسلوا بها للذود عن حماهم ان يعرضوا حقيقة الامور بالصحافة والتآليف الصادقة فيبيّنوا العالم الحطة المثلى التي يسيرون عليها في دولتهم المستجدة ليزيلوا عنهم التهم الباطلة ويفندوا المزاعم المادية . واذ قد وقفنا على تأليفين جديدين طُبعا مؤخرًا في اللغة الفرنسويَّة فها نحن نستخلص منهما المعلومات المفيدة لتعريف تلك البلاد المجهولة

والتأليف الاول مدارهُ على تحديد تخوم بولونية وضعهُ السيو وَنسلاس تَلكوسكي عمَّا الفهُ صاحبهُ قبل الحرب سنة ١٩١٢ وقد نقله مؤخرًا الى الفرنسويَّة السيو قارنسكي في وارسو سنة ١٩٢١ (١) . ولأن تأليفهُ سبق الحرب لم يقصد منهُ مؤلفهُ الَّا الوجه العلمي دون غاية سياسيَّة . وهو يُنحي الى تفنيد القائلين بان بولونية خالية من حدود طبيعيَّة فلا يسعها ان تطلب لها الاستقلال

واثباتًا لقوله يقرّر وجوب استقلال بولونية لأنها هي الحاجز الطبيعي بين اوربَّة الغربية واوربَّة الشرقية اذ اليها تنتهي مميزات اوربَّة الغربيَّة فتمتزج تدريجاً بخواص اوربَّة الشرقية ولولا هذا الامتزاج التدريجي والاندماج اللذين تصادمت الحضارتان وتغلبت عليهما الروح القومية المادية . فموقعها بالنسبة الى شبه جزيرة اوربَّة الغربيَّة كموقع سهول لمجردية بالنسبة الى جبال اپنين او كموقع وادي الكنج بالنسبة الى معاملة دكان في الهند . فبولونية مثلها تُعدّ كساحة وغى للشعوب فيها يظهر نفوذ احد العنصرين المتنافيين . قال احد كبار الكتبة : « انَّ بولونية كالجندي الواقف على باب اوربَّة الغربيَّة يصون تمدنها الراقي لئلا تميث به الامم الهمجيَّة الواردة من آسية » . وقد ظهر فضل بولونية يوم تقدَّم الاتراك فبلغوا الى ابواب ڤينَّة فان جنودها ردوهم خائبين فكانت نجاة اوربَّة على يد ملكهم سوبيسكي سنة ١٦٨٣

(١) اسمهُ بالفرنسوي : Wenceslas Nalkowski : La Pologne entité géographique. traduit par T. Warynski, Varsovie, 1921

وامتياز بولونية بكونها دولة متوسطة يظهر ليس فقط في موقعها بل يلوح ايضاً في اقليمها ونباتها وحيوانها ولا سيما في طباع اهلها. فان اعتبرتَ طرفي بولونية وجدت في غربيّها العنصر الجرماني الممتزج بالاخلاق البولونيّة . وفي شرقيّها عدّة عناصر صقليّة وروثنيّة وليتوانيّة يتغنّت بينها العنصر البولوني . ولنا دليل على صفة بولونيّة البورّيّة في العنصر اليهوديّ المتجمع فيها متوفرًا كفي احد مراكزه

وفي اديان بولونية وآثارها الهندسيّة دليل آخر على قولنا بانّها دولةٌ وسطى جامعة بين التباينات . فانّ الطائفة اللاتينيّة هي الغالبة على الشعب غرباً والطقوس الشرقيّة عليه شرقاً في الروثنين . وكذلك الهندسة الكنسيّة والدنيّة تشبه في الغرب الابنية الشائعة في اوربّة الغربية من الزيّ الروماني والقوطي والمستحدث . اما في الجانب الشرقيّ نترى الهندسة البوزنطيّة وبروجها المتّية وذلك تدريجاً على قدر ما تسير الى المنطقة الشرقيّة او الجنوبيّة الشرقيّة . ففي تلك البسيطة الواسعة تألّف شعبٌ مستقلّ احيا تربتها ووسّمها بسمته

*

هذا ما استفدناهُ من التأليف الاوّل ونحن مصدّقون على قول كاتبه واثباته لميزة وطنه عمّا سواه . امّا التأليف الثاني فاعمّ فائدةً ولشمل موضوعاً وهو تقويم بولوني للسنة ١٩٢١ يصف احوال بولونية بعد فوزها بالاستقلال

لمّا انتشبت الحرب الكونيّة سنة ١٩١٤ نزل البولونيّون في ساحة الوغى في جانبَي الدول المتحاربة لانقسام وطنهم بينهما الّا ان الجيوش البولونيّة التي كانت مع الدول المركزيّة النمسة والمانية ابلت بلاء اصدق واثبت لبغض جنودهما لروسيّة الظالمة. واجتهد الروس ان يكسبوا ثقة البولونيين الذين تحت حكم دولتهم فوعدهم الغرندوق نقولا نقولوفتس بالاستقلال لكنّهم لم ينخدعوا لهذه المواعيد العرقوبيّة التي جدّدها القياصرة مرارًا دون اقامها فعلًا

وكان الفوز في اواخر السنة ١٩١٤ في جانب المسكوب الذين دخلوا بلاد غاليسية اي بولونية النمسويّة فنهبها القوزاق واحرقوا كنائسها واسروا اساقفها وسجن الاسقفُ الروسيّ افلوجيوس احدائها ليخرّجهم على الاخلاق الروسيّة . فزاد كلّ ذلك نفور البولونيين من اعدائهم المسكوب

ثم دخلت السنة ١٩١٥ فانقلبت الامور وزحفت الجيوش الالمانيّة والنمسويّة على روسيّة فخلّصت اوّلًا غاليسية ثمّ سارت الى بولونيـة الروسيّة منتصرةً فـدخل الالمان الى حاضرتها وارسو (فرسوفية). وبدخولهم انتعشت آمال البولونيين وتشوّفوا الى استقلال بلادهم

وفي الواقع منح الالمانيّون بعد مدّة اهل بولونية نوعاً من الاستقـلال اعلنوا به في ٥ تشرين الثاني من السنة ١٩١٦ لكنّ المانية قيّدت تلك الموهبة بشروط ثقيلة اذ جعلتها تحت نظارتها وبثّت في انحائها فِرَق جنودها لتدبير حركاتها الحربيّة. وكانت النمسة وعدت بولونية بانّها تردّ لها غاليسية لتسترضيها

وفي تلك الاثناء صارت الدول باجمعها بعد فشل روسيّة تنظر الى بولونية بعين اللطف وتتمنّى لها الخير. فان الرئيس ولسون جاهر في ندوة شيوخ الولايات المتّحدة في اوائل سنة ١٩١٧ بحقوق بولونية في الاستقـلال التامّ. بل اعترفت حكومة السوفيات الجديدة في پتروغراد في شهر آذار بذلـك الاستقلال. امّا فرنسة فتحقيقاً لأماني صديقتها بولونية ألّفت جيشاً من البولونيين في تخومها لتمدّ اليها يد المساعدة

على ان الاستقلال المعطى لبولونية في السنة ١٩١٦ كان في الظاهر اكثر منهُ في الحقيقة لكثرة ما كانت تلقى الدولة الجديدة من المصاعب. فكان موقفها حرجاً بين المجلس الوطني الذي شكّلهُ اهلها لتدبير الامور وبين الحكومة الشرعيّة التي كانت في ايدي مجلسٍ موقّت يتألّف من ٢٦ شخصاً يعيّنهم ارباب الجيش الالماني. فتواترت الاحوال بين المجلسين وخصوصاً بتطرُّف الاحزاب من الاشتراكيين والديموقراطيين. ثمّ تحسّنت الامور نوعاً بتأليف مجلس اداري وشورى وزاريّة في ايلول سنة ١٩١٧ فسلّمت الدول المركزيّة امور العدليّة والمعارف الى هيئته

وكان السوفيات بعد سقوط الملكيّة يطلبون من المانية ان تستدعي عساكرها من بولونية. وكذلك طلبت بولونية ان يكون لها حصّة في معاهدة برست ليتوسك الّا انهُ لم يتمّ شيءٌ من كلّ ذلك

فاتّفقت حينئذ فرنسة وانكلترة والولايات المتحدة على إعلان استقلال بولونية متألفةً من اقسامها الثلاثة التي اغتصبوهـا منها. وذلك في كانون الثاني من السنة ١٩١٨. لكنّ اعتراف الدول المتحالفة بقي دون مفعول مدّة نصف سنة حيث كانت

بولونية تلقى من جهة البلاد المجاورة لها مشاكل عديدة كانت سببتها مطامعة الالمان والروس في پوست ليتوسك . فمن ذلك انّ اوكرانية وضعت يدها على اراضي سِلْم التي كانت تدّعي بها بولونية . وكذلك قامت في وجه بولونية دولة ليتوانية لسبب ضبط الحدود الفاصلة بين الدولتين لاسيما لتنازعهما كلتيهما في الحكم على ڤيلنا الحاضرة البولونية الشهيرة

ثمّ تقلّبت الامور ثانيةً وفي تمّوز سنة ١٩١٨ باشرت دول الاتفاق غاراتها في الوجهة الغربيّة وتوالت انتصاراتها . ففي شهر تشرين الاوّل تولّى المجلس الاداري في بولونية تدبير البلاد وطلب من الجيوش ان تقسم لهُ قَسَم الطاعة . وفي تشرين الثاني طردت الحامية الالمانية من بولونية الروسيّة وعُهد بالامر الى رئيسها الحالي جوزف پيلسودسكي . وفي شهر كانون الاول اضطرّت الجنود الالمانية الى تخلية بولونية البروسيانيّة . وبذلك عادت بولونية الى تخومها السابقة في القرن الثامن عشر

وفي السنة ١٩٢٠ اعترفت الدول تباعاً باستقلال بولونية التامّ . فاصبحت دولةً يبلغ اهلها ٣٠٠٠٠٠٠٠ ٤٥ من النفوس . كان نحو النصف منهم في تبعة روسيّة في القسم المعروف منها باسم «مملكة الماهدة» انفةً من اسم بولونية وكانت قسمت تلك المملكة الى عشر ولايات حشدت فيها كل يهود روسيّة

وهذا القسم الروسي الذي اغتصبتهُ روسيّة ورُدّ الى نصابهِ يُقسَّم اليوم الى خمس ولايات (palatinats) لم ينقص منها الّا قطعة صغيرة صارت في حكم ليتوانية . والبولونيون الاصليون يبلغون في الايالات المذكورة ٧٩ في المئة من عنصرهم

والقسم النمسوي اي غاليسية يتركّب من ثمانية ملايين من النفوس نصفٌ منهم بولونيون اصليّون والنصف الاخر يتركّب من الروثنيين او الاوكرانيين

اما القسم الثالث الذي كانت استولت عليهِ بروسية اعني غرندوقيّة پوسنانية . فاستردّتهُ بولونية لأن تسعة اعشار اهلها من الاصل البولونيّ

ويُضاف الى هذه الاقسام الثلثة بعض المماليك اخصُّها اراضي بيالستوك التي اختار اهلها الانضمام الى بولونية . هذا فضلاً عن قسم من سيليزية العليا الذي نالتهُ بولونية في العام الماضي . وكلّ هذه الانحاء حافلة بالسكان البالغ عددهم ٩٤ في الكيلومتر . والغالب على تلك الاراضي التربة الزراعيّة البالغة ٥٨ في المئة من مساحتها . ثم يتبعها في نظم

شأنها اتساع احراجها. وقد قلّ عدد كبار المتملكين الذين يملكون حاضراً ٤٢ بالمئة من الاراضي. اما المستغلات الشائعة فهي خصوصاً البطاطا والجاودار والشوفان ثم القمح والشعير. وهناك المعامل الكبرى للسكّر وللبيرة وللاستقطار

وتحت هذه التربة السطحية كنوز معدنية في غاية الشأن اخصّها الفحم الحجري فان هناك من المناجم الفحمية ما يفوق على مستودعات انكلترّة والمانية معاً. ولهذا السبب تترقى بولونية يوماً بعد يوم في صناعتها فترى سكان القرى يتواردون الى حيث تتوفر اعمال الصناعة كوارسو ولودس. وفي تزاحم الفعلة في المدن كما لا يخفى خطر ظاهر بنمو الحزب الاشتراكي. والعمّلة في بولونية ومثلهم الفلاحون يؤلفون النقابات والشركات المتضامنة ويعقدون الاجتماعات المختلفة

اما المعارف فانها تختلف باختلاف اقسام بولونية الثلثة وكان عدد المدارس في غاليسية اوفر منهُ في روسية والمانية وكان النمسويون يسمحون بتعليم اللغة البولونية بخلاف الدولتين الاخريين. فما أُعلن بالاستقلال حتى توفرت المدارس في كلّ طبقاتها وازداد عدد التلاميذ ازدياداً مهماً. فانّ عدد المدارس كان قبل الحرب لا يتجاوز ٥٨٥٥ يدرس فيها ٤٠٦،٠٩٦ تلميذاً وقد بلغ سنة ١٩١٨ عدد المدارس ١٠،٣٥٦ يتردّد اليها ٨٦٨،٧٥٠ ولداً. وكذلك التعليم الثانوي فانّ مدارسهُ التي كانت قبل الحرب ٣٥٧ اصبحت سنة ١٩١٨ ١٢٣ وعدد طلبتها من ٨٧،٠٠٠ الى ٩٨،٠٨٥ طالباً

وللعلوم العليا سبع كليّات جامعات في كراكو (كراكوفية) ولمبرغ وبوزن وفيلنا ولوبلين وكليتان في وارسو. واثنتان من هذه الكليات حرّتان في وارسو ولوبلين. وبقيّة العلوم الاختصاصية نحو عشرين مكتباً

هذا نظر اجمالي اقتطفنا فوائدهُ من التقويم الموما اليهِ ومنهُ يتّضح ما في بولونية من الحركة والانبعاث الى الترقي والحضارة. وما هي الّا نهضةٌ من شعبٍ حرّ طالما ضغطهُ اعداؤهُ بقوتهم الجبريّة وهو اليوم يطمح الى ما يستحقّهُ من الرفعة وعلوّ المقام

ومما كنّا وددنا ان نطّلع عليهِ في هذا التقويم فأسفنا على نقصانهِ وصف حالة بولونية الدينيّة. وهي على ما نعلم غاية في الازدهار وكفى بهِ دليلاً اعلان روساء بولونية بنيّتهم ان يتّخذوا الدين الكاثوليكي وسُنّتهُ كقاعدة دولتهم الجديدة